امنية لم تحقق

بقلم الاستاذ حسن الجواهري

مررت وانا اتجول ذات يوم على سور مبني بالحجارة الصفراء فيه زخرف ونقوش يحيط بمساحة من الارض قدرها ١٠٠٠ متراً واول مالفت نظري قبرا قيم في وسط الساحة الكبيرة يرتفع عن سطح الارض شبراً وبجنبه رجل يناهز السبعين من عمره بيده مصحف يقرأ فيه فدخلت وانا اسائل نفسي ترى ما شأن هذا القبر ضمن هذا السور الفخم وما هي قصته لابد ان له حادثاً يستحق التسجيل ، وانا رجل اهتم بالحوادث واسجلها للعبرة والتاريخ .

جلست القرفصاء امام قارئ القرآن بعد ان سلمت عليه ورد علي السلام فرفع الي رأسه ثم قام تعظيما لي واجتراما كما هي العادة المتبعة بين الناس، ثم سألته عمن يرقد في القبر فقال رجل من الناس عاش محروما ومات محروما وهذا هو شأن الدنيا في ابنائها . ثم تابع يقول : لماذا كل هذا الاهتمام منك بصاحب هذا القبر . قلت ان الذي جلب اهتمامي أليه هذا السور الفخم الذي لا يليق إلا بالقصور الفخمة فلابد لصاحبه الراقد داخله قصة ذات شأن في هذه الحياة . فقال وقد لمعت عيناه ببريق من الجد والاهتمام اذا كنت تهتم بالقصص الواقعية وتستلهم منها العبر والعظات فاصغ الي جيداً لاسرد عليك الحقيقة المؤلمة . قلت تفضل وانا لك شاكر : فقال :

لقد كان (حميد) ابنا لصديقي الحميم « فلان » وقد فقد جميع اهله قبل ان يتم العاشرة من عمره فنشأ نشأة فقيرة كما ينشأ اليتيم القاصر ولكنه كان ذا احساس مرهف وتفكير صحيح واول ما مارس من المهن مهنة التحميل لانه قوي البنية متين العضلات حديدي الاعصاب فكان حمالا ممتازاً يمتاز عن اقرانه الحمالين بالذكاء والامانة والنشاط . كان يفكر في تأسيس اسرة وحياة رغيدة والتحرر من مهنته الشاقة الوضيعة لذلك كان يضم الفلس الى الفلس والدرهم الى الدرهم لكي يجمع المال الكافي لتنفيذ مشروعه العائلي العظيم . لبناء بيت مريح قد رسم خريطته ووضع تصميمه وكم سمعته يقول هنا ستكون غرفتي الخاصة وفيها سوف اعيش مع زوجتي الحسناء وهناك سيكون موضع السيارة التي سنتنقل عليها في المتنزهات والحدائق . وهناك سيكون مكان الخدم والعبيد الذين سوف يسهرون على سعادتي وسعادة اسرتي . وفي هذا الركن سيكون ملعب اطفالي ومحل تسليتهم كل هذه الاحاسيس كانت تطوف في مخيلته فتدفعه الى الانشاء والتعمير برغبة ملحة وشوق جموح وكان لشدة حرصه على المال الذي اخذ يتجمع عنده على مرور الايام لايثق باحد من الناس حتى بي انا الذي اشفق الناس عليه واقربهم منه فهو لا يأتمنهم على ماله ولا يطلعهم على حقيقة امره فاذا آوى الى فراشه وضع زمة الاوراق النقدية تحت وسادته واذا خرج الى السوق شدها على بطنه واذا سافر حملها في ثيابه مخيطة وهذا شانه في المحافظة على نقوده لا حرصا عليها بل رغبة في تنفيذ مشروعه ولما حان موعد التنفيذ جمع اطرافه وتشجع ثم اقدم على شراء هذه الارض وراح يبدأ في تشييد البيت واول ما انشأ هذا السور الضخم الذي تراه استعدادا للحياة السعيدة المستقبلة وكان كل يوم يحضر ليحاسب العمال ويعطيهم اجورهم شان الرجل الحازم الذي لا يكل امره الى غيره وقد حضر كعادته ذات صباح مبهج لكي يشرف على البناء الذي قارب ان يتم فلم يجد العمال يعملون لانهم قد فقدوا زميلا من زملائهم فهم من اجل ذلك سيواصلون تعطيلهم الى الغد فجلس على دكة الباب الرفيعة يستروح النسيم العليل ويجيل ببصره في انحاء الساحة الكبيرة سابحا بخاطره الامال والاحلام وماهي إلا لحظة حتى غفا اغفاءة عميقة ثقلتها خطرات النسيم البارد وطولت مدتها الاحلام المتعاقبة اللذيذة وكانت آنذاك محفظة نقوده في جيب سترته وقد برز طرف من اطرافها وبينا هو في سباته اذ مر عليه لص ماهر فرأى طرف المحفظة بارزاً فانتشلها بسهولة وذهب بها الى حيث اللذة والاستمتاع .

انتبه الرجل من نومه مذعورا يتفقد محفظة نقوده كأن